"البحث عن أرضية مشتركة : أيرلندا عند إستين إيفانز"

من معاملات معهد الجغرافيين البريطانيين، السلسلة الجديدة 19 (1994): 183-201

برايان جيه جراهام

ترجمة بتصرف

أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة

كان إمير إستين إيفانز (1905-1989) أحد طلاب إتش جيه فلور ، وأصبح رئيسًا لقسم الجغرافيا ثم مديرًا لمعهد الدراسات الأيرلندية في جامعة كوينز في بلفاست . كان واحدًا من أكثر الجغرافيين تأثيرًا في أيرلندا . في هذا الاختيار، تتبع براين جراهام النسب الفكري لإيفانز في التقليد الإقليمي الفيدالي ويستكشف آثار جغرافية إيفانز على فهمنا للهوية الأيرلندية . تكتسب رواية جراهام أهمية خاصة ، نظرًا لتقسيم أيرلندا الشمالية . ويشير غراهام إلى أن حياة إيفانز وعمله كانتا مكرستين في نواح كثيرة لإثبات أن شمال أيرلندا كان منطقة ثقافية متميزة ، ومن الواضح أن هذا ربط إيفانز بقوة بأيديولوجية الاتحاد . ومع ذلك ، زعم غراهام أن جغرافية إيفانز كانت في الواقع أكثر دقة وتعقيدًا من هذا ، وأن فهمه للثقافات الإقليمية المتميزة في أيرلندا أدى إلى رؤية "الأيرلندية" على أنها تتكون من هويات ثقافية متنوعة ، وليس هوية واحدة متجانسة .

وكما توضح روابط فرانز بتري بصعود الفاشية الألمانية ، **فإن تقاطع الثقافة والجغرافيا له آثار سياسية** . وعلى وجه الخصوص ، غالبًا ما أجرى الجغرافيون العاملون على المناطق الثقافية دراساتهم بهدف المساهمة في مشروع أكبر للقومية وبناء الأمة . وهكذا ، ركز كتاب فيدال دي لا بلاش "زواج فرنسا" على كيفية بناء ثقافة فرنسية مميزة على مجموعة متنوعة من أنواع الحياة ، وساهمت الدراسات الإقليمية التي أجراها إتش . جيه . فلور لويلز في سرد الهوية الوطنية الويلزية المميزة . ويضع غراهام إيفانز في هذا السياق (مشيرًا أيضًا إلى الروابط بين عمل إيفانز وعمل كارل ساور)، ولكن في الوقت نفسه ، يتساءل – من خلال عمل إيفانز – عن الافتراض القائل بأن الثقافة الإقليمية تنبع بالضرورة من التماسك والتجانس الداخليين . بل إن **الثقافة الإقليمية المميزة** – ومن ثم الثقافة الوطنية – يمكن أن تتشكل من مزيج متناغم من تقاليد الثقافة الشعبية المحلية .

كما يثير غراهام عدداً من الانتقادات لعمل إيفانز ، مشيراً إلى تحيزه المادي أو "الصناعي" في التعامل مع الثقافة كونها مجموعة من الأشياء الملموسة ، وليس عالماً رمزياً من المعنى . وفي هذا النقد نرى الانفصال الواضح بين المفاهيم الأكثر معاصرة للثقافة وتلك التي تبناها جغرافيو الثقافة الأوائل .ويزعم غراهام أيضاً أن نهج إيفانز كان يركز بشكل مفرط على مجتمع الفلاحين الريفيين في وقت كانت فيه أيرلندا تخضع لتوسع حضري وتصنيع كبير وتشكيل الطبقة العاملة . كما أخطأ إيفانز في تاريخه في نظرته إلى الثقافات الشعبية المعزولة في غرب أيرلندا كونها لاجئين من مجتمع أيرلندي قديم ما قبل الكاثوليكية وبالتالي أكثر "نقاءً" . وقد وجهت انتقادات مماثلة إلى جغرافية الثقافة في أوائل القرن العشرين . ولكن غراهام يصر أيضاً على أنه على الرغم من هذه العيوب ، فإن "عمل إيفانز يحتفظ بطابعه الثقافي" "إنها ذات أهمية كبيرة لأيرلندا المعاصرة من خلال جوانب معينة من رؤية الهوية التي تقدمها" . **هذه الرؤية هي رؤية "أرضية مشتركة" وسط التنوع**

برايان جراهام مدرس الجغرافيا في جامعة أولستر . وهو المؤلف المشارك لكتاب "جغرافيا التراث : القوة والثقافة والاقتصاد" (2000) ، وقام بتحرير العديد من المجموعات حول الهوية الثقافية والتراث الأيرلندي والأوروبي ، بما في ذلك "بحثًا عن أيرلندا : جغرافية الثقافة" (1997) و"حواس المكان : حواس الزمن" (2005). ويواصل الكتابة عن سياسات الثقافة والتراث في أيرلندا الشمالية . [هذه] الورقة لها هدفان

. في المقام الأول ، تسعى إلى ربط شيء من إيفانز وعلاقته بالمعرفة الجغرافية بشكل عام ، وبإيرلندا بشكل خاص . يُنظر إلى جغرافية إيفانز على أنها نتاج ثقافي ، مشتق من تفاعل فلسفة جغرافية معينة مع الظروف الاجتماعية والسياسية المحددة في أيرلندا . كانت موردًا لنفسه وأجندته الخاصة بينما كان يعمل في جزء من جزيرة مقسمة حديثًا ، وكان كلا العنصرين يكافحان من أجل تأسيس هويتهما الخاصة ، في المقام الأول من خلال تبني خطابات ثقافية وسياسية متبادلة حصرية .

ومع ذلك ، طوال عمله ، لم يكن إيفانز ميالًا إلى أن يكون صريحًا بشأن الطبقة أو السلطة أو الدين أو السياسة ؛ في الواقع ، في التراث الأيرلندي ، يتجنب عمدًا مثل هذه المجالات المثيرة للجدل . ومع ذلك ، فإن هذه المناقشة خلصت إلى أن إيفانز كان لديه أجندة سياسية ، والتي تجسدت بشكل خاص في رفضه قبول افتراضات القومية الأيرلندية التقليدية . وتكمن الصعوبة في أن هذا البعد لم يتم توضيحه صراحةً في عمله المنشور، مما أدى إلى خلق تنافر غير محسوم بين استكشافه للهوية الأيرلندية والتعبير السياسي عنها . ثانياً ، لذلك ، تحاول الورقة البحثية استجواب جغرافية إيفانز من حيث الرؤى التي قد تقدمها للصراع السياسي والاقتصادي والثقافي الناجم عن وجود أسس متنازع عليها للتفاهم الاجتماعي داخل أيرلندا ؛ ويظل عمله مورداً يمكن استخدامه في التحليلات المعاصرة لطبيعة ومعنى الأيرلندية والنص الفرعي الحتمي لها المتمثل في التقسيم .

في حين أن قضايا الهوية الإقليمية تتصدر المناقشات حول معنى أولستر وموقعها داخل أيرلندا ، إلا أن هناك إدراكًا ضئيلًا لملاحظات توان [في "اللغة وتكوين المكان : نهج السرد والوصف"، حوليات جمعية الجغرافيين الأميركيين 81، 1991] بأن المناطق قد تكون ذات أهمية كبيرة ، لا وجود لها خارج وعي الجغرافيين الذين قد يقنعون الآخرين بقبول هذه الكيانات . غالبًا ما يرتبط إيفانز بجون هيويت في محاولاته لتأسيس هوية أولستر التي ، على الرغم من أنها قد تدين بشيء لكل من بريطانيا وأيرلندا ، إلا أنها خاصة في المقام الأول بالمقاطعة نفسها . وفقًا لهيل [في "المناطق : الهوية والقوة : منظور أيرلندا الشمالية" ، في .P Drisceoil، محرر، الثقافة في أيرلندا، 1993]، على سبيل المثال ، زعم إيفانز أن علم الآثار والحياة الشعبية أظهرا أن المجتمعين في شمال أيرلندا ، على الرغم من الانقسام العميق بسبب الدين ، يشتركان في نظرة إلى الحياة وتراث مشترك مختلف عن ذلك السائد في الجنوب .

وعلى الصعيد السياسي ، يمكن لمفهوم التقليد الأصيل لأولستر، والذي هو أوسع من البروتستانتية أو الكاثوليكية ، أن يجد تعبيرًا إما كقومية أولستر ، أو ، على نحو أقل تطرفًا ، كشكل من أشكال الهوية الإقليمية داخل المملكة المتحدة الكبرى ، التي تختلف إقليميًا في حد ذاتها . وبالتالي ، يمكن تصوير آراء إيفانز حول التميز الإقليمي على أنها ليست أكثر من دعامة ملائمة لأيديولوجية الاتحاد التي تقلل من أهميتها فكريًا في السياقات الأيرلندية الأوسع وحتى الدولية...

وخلال مسيرة أكاديمية طويلة قضاها بالكامل في بلفاست ، كان لدى إيفانز ، وهو رجل معقد في الحياة والمواقف ، العديد من الخلافات مع الأكاديميين الأيرلنديين الجنوبيين ، وخاصة عالم الآثار رودري دي فاليرا . ومن المحتم أن تُعزى الدوافع والتفسيرات السياسية ، وقد نُسبت بالفع ، إلى وجهات نظرهم المتناقضة حول أولوية التأثيرات الثقافية المعينة في المجتمع الأيرلندي المبكر... ورغم أن العوامل الأكاديمية والشخصية كانت متورطة هنا ، فإن مثل هذه الأدلة يمكن استخدامها لتصوير إيفانز كونه نقابيًا لم يحافظ إلا على روابط رمزية مع بقية أيرلندا . وعلى العكس من ذلك ، أزعم هنا أن عمل إيفانز يبدو أيضًا أنه يعالج المفهوم الأكثر قبولًا فكريًا لأيرلندا المتنوعة إقليميًا و إن أولستر ليست سوى أحد أشكال الرؤية غير المتجانسة للأيرلندية. . . .

إيفانز في سياقه الجغرافي

[يُظهِر عمل إيفانز] درجة عالية جدًا من الاتساق والترابط الداخلي ، وهو نتاج ولاء مستدام لمجموعة من المبادئ الجغرافية المعينة. . . . [كان التأثير الأكثر مباشرة على إيفانز هو الفلسفة الشاملة لـ إتش جيه فلور. وفي المقابل [وفقًا لديفيد ليفينجستون، التقليد الجغرافي، 1992] ، كانت أفكار فلور تستند إلى نسخة معدلة من الرؤية الداروينية لباتريك جيديس التي مفادها أن "تحديد الخصوصيات الإقليمية" كان أمرًا حاسمًا لـ "الوعد التطوري بالتوليف العلمي" لقد تم تعديل التأثيرات المباشرة لفلور على إيفانز بشكل كبير من خلال وساطتهم ، أولاً من خلال منظور فيدالي ثم من خلال الإعجاب الطويل الأمد بمدرسة الحوليات في الجغرافيا التاريخية .

وبالتوازي مع اهتمام فلور بثقافة الفلاحين ، أكد بول فيدال دي لا بلاش على أهمية الناس العاديين وبيئتهم : بالنسبة له ، لم تكن المنطقة مجرد إطار مناسب بل كانت واقعًا اجتماعيًا . وعلى الرغم من أن نهجيهما كانا مختلفين جدًا ، إلا أن إيفانز وتي جونز هيوز، أحد أكثر معاصريه تأثيرًا في دراسة الجغرافيا الأيرلندية ، شاركاه هذه الفكرة بأن المظاهر الطبيعية كانت نصًا ديمقراطيًا يسجل تاريخ غير المسجلين . اعتقد فيدال وبعد ذلك إلى حد ما كارل ساور، وهو تأثير كبير آخر على إيفانز، أن المظاهر الطبيعية كانت مؤشرًا على الانسجام بين الحياة البشرية والبيئة التي عاشت فيها...

كانت أفكار فيدال ، مثل نوع الحياة والبيئة والشخصية ، حاسمة في ظهور مدرسة الحوليات ومحاولتها المتضافرة لرسم خريطة وتفسير الواقع المعقد للحياة البشرية بالإشارة إلى الدراسات المحلية والإقليمية . لقد أصبح مبدأ من مبادئ الجغرافيا التاريخية ، وخاصة كما فسره فرناند بروديل ، أن أي واقع اجتماعي يجب أن يُعزى إلى الفضاء أو المكان أو المنطقة التي يوجد فيها . ومن خلال الأدلة المستمدة من أعماله المكتوبة على الأقل ، كان إيفانز مستعدًا لدمج هذه الأفكار المستمدة من فيدال في فلسفته الجغرافية .

وفي أواخر حياته المهنية ، استمر في التعبير عن إعجابه بمارك بلوخ ، ولوسيان فيفر، وربما بروديل قبل كل شيء ، وأشاد - مثل ساور - بالعبقرية الفرنسية في التوليف الإقليمي . ومن فيدال أيضًا ، أخذ إيفانز فكرة البلدان كونها الوساطة الجغرافية للتوليف والاستمرارية ، ونتاج "تفاعل الإنسان مع بيئته المادية على مدى قرون ولم تظهر التعميمات الأكبر إلا تدريجيًا من سلسلة من دراسات الحالة التفصيلية والدقيقة لمختلف البلدان .

من الواضح أن عمله مؤطر في إطار نظرية معرفية احتمالية . كان من المقرر أن يركز إيفانز عمله على التفاعل بين الناس وبيئتهم ، والذي يمكن تلخيصه بشكل أفضل في مقولة فيفر الشهيرة : **"لا توجد ضرورة في أي مكان ، ولكن في كل مكان توجد إمكانيات ، والإنسان كونه سيد هذه الإمكانيات ، هو الذي يحكم على استخدامها"** . وعلاوة على ذلك ، حافظ إيفانز على علاقة قوية مع ساور وغيره من الجغرافيين في أمريكا الشمالية الذين رفضوا الحتمية وتشاركوا في مفهوم مماثل للجغرافيا كونها تاريخًا ثقافيًا في نطقها الإقليمي (ليفينجستون 1992، 297).

وقد امتزجت هذه التأثيرات مع نظرية فلور عن المناطق كونها أماكن للتجربة المعاشة ، وكان مفهومه عن مناطق الاتصال هو الذي أرشد إيفانز إلى جغرافية أيرلندا : **فلم تكن المناطق مجرد "نتاج اتحاد تكافلي بين الناس والأماكن" بل كانت أيضًا "عواقب العلاقات المتغيرة بين الناس والناس"** (ليفينجستون 1992، 285). وبالنسبة لإيفانز، كانت **الجغرافيا** "الأرضية المشتركة بين العالم الطبيعي والتاريخ الثقافي" [ر. إي. جلاسكوك، "نعي: إي. إستين إيفانز، 1905-1989"، مجلة الجغرافيا التاريخية 17، 1991]. وفي عمله المكتوب على الأقل ، ظل إيفانز بعيدًا إلى حد كبير عن التداعيات السياسية لهذه الأفكار . لقد احتفظ أيضًا

بيقينه بشأن هذه الفلسفة الجغرافية ، وبالتالي فإن عمله نفسه يشكل استمرارية ، مستنيرة بهذه المبادئ المعرفية . يتشابك هذا التراث الجغرافي مع تفسيره لأولستر وعلاقة تلك المقاطعة ببقية أيرلندا ، ويؤكد عليها .

إن قراءتي لأعمال إيفانز تثير خمسة دوافع رئيسية ، تعتمد جميعها بشكل كبير على بعضها البعض وتتشابك معها . وهي تشكل معًا مساهمته في تحديد الفضاء المفاهيمي لأيرلندا . ويزعم هنا أن الدوافع مستمدة بشكل مباشر من التأثيرات المعرفية الموضحة أعلاه ، والتي يتم التوسط فيها من خلال محاولة متسقة لتحديد الفضاء الثقافي لأولستر داخل أيرلندا . وهذه أجندة صريحة وليست خفية ، ولكن في حين قد تكون مدفوعة بطموحات إيفانز السياسية بالإضافة إلى فلسفته الجغرافية ، فإن الدوافع تعمل من خلال المصطلحات الثقافية وحدها . وهي الإقليمية ، والمجتمع البشري والبيئة ؛ والأرضية المشتركة - الفلاحون والريف ؛ والاستمرارية ؛ وأولستر؛ وأخيرًا الأيرلندية .

الإقليمية والمجتمع البشري والبيئة

أولاً، وهو الأساس لكل جانب آخر من جوانب منهجية إيفانز، كان الاعتقاد بأن العلاقة بين الناس وبيئتهم تتمثل في البعد الإقليمي ، وهو في حد ذاته شرط لسلوك الناس . وبالتالي ، لدينا التأكيد المستمر على المنظور الاحتمالي للمجتمع البشري الذي يتشكل ، وبالتالي ، يشكل البيئة جنبًا إلى جنب مع الدلالة المصاحبة للمكان المحدد **كأرض وشعبها** . وبالتالي ، احتلت العقيدة الشاملة التي تشغل جوهر الكون الجغرافي لإيفانز أن الناس - بما لديهم من معادن ثقافية مشتركة ، وقيم ، ومعتقدات ، وعواطف – والأرض يسيرون معًا ويشكلون بعضهم البعض ، ولا يمكنك فهم أحدهما بمعزل عن الآخر . لقد تصور أن الروابط الأكثر أصالة تحدث في البلدان ، وهي مناطق أصغر بكثير مكانيًا من المقاطعات الأربع في أيرلندا . كانت الأمثلة التي استشهد بها في أغلب الأحيان هي مملكة مورن وغرب كورك ، وهي مناطق صغيرة بما يكفي بحيث يمكن التحقق من التفسير من خلال الملاحظة والمعرفة المحلية . أصبحت دراسته للمملكة الأولى معترف بها على نطاق واسع الآن كونها رواية كلاسيكية وبليغة ، على الطراز الفرنسي ، عن مملكة صغيرة . ولكن - جسديًا وثقافيًا - جزء مميز للغاية من مقاطعة داون .

وبشكل عام ، وكما أشرنا سابقًا ، كان إيفانز يميل إلى الاعتقاد بأن الإبداعات انتشرت من اسكتلندا ، عبر شرق وجنوب أيرلندا نحو شمالها وغربها . ونتيجة لذلك ، أصبحت بقايا ، مثل الزراعة في الحقول المفتوحة في جويدور، مقاطعة دونيجال ، جزءًا من مجموعة من البقايا الثقافية ، التي استمرت في هذه الزاوية البعيدة من الجزيرة . أصبح الغرب بالنسبة لإيفانز أيرلندا الحقيقية ، حيث بقيت الثقافة الشعبية الفلاحية للشخص العادي ، إن لم تكن سليمة ، فيمكن التعرف عليها على الأقل . ومن عجيب المفارقات أن هذه كانت أيرلندا نفسها تمامًا التي حددتها رابطة الغيلية ، على سبيل المثال - من مقدمات مختلفة جدًا - كونها قلب الوعي الثقافي للجزيرة ، والمنطقة ذات الجمال البكر حيث كانت تأثيرات الحداثة في أضعف حالاتها...

إن الحجة الواردة في الكتيب ، أولستر: الأرضية المشتركة (1984) ، ربما تكون أوضح رواية لوجهة نظر إيفانز غير المتجانسة ثقافيًا والإقليمية بشأن أولستر وأيرلندا ، وإن كانت تتسم بصبغات مميزة من الصور النمطية العرقية . فقد رأى إيفانز أراضي دروملين المغلقة المخفية في جنوب أولستر كمظاهر طبيعية بروتستانتية ، يسكنها شعب محدود الرؤية والخيال ، عالق في "سوره النفسي" على حد تعبير فوستر [من العواقب الاستعمارية، 1991، 159] . وعلى النقيض من ذلك ، هناك تقليد آخر لأولستر - المستنقعات والتلال المفتوحة العارية ، وأراضي الشعراء والرؤى في روح أولستر - "المنطقة الداخلية الروحية للذكريات القديمة للحرية والعاطفة" (فوستر 1991، 159) . كان إيفانز يعتقد أن هذا التنوع يمكن التوفيق بينه كموضوع واحد

مع العديد من الاختلافات ، حيث تنبع شخصية أولستر من اندماج العديد من هذه البلدان الصغيرة . لقد أدرك أن المظاهر الطبيعية والتراث المادي كانا أيضًا مصدرًا قويًا للخلاف ، لكنه زعم أنه يتعين علينا أن نعيش معه ونستغله كونه ميراثًا كاملاً بغض النظر عن المعتقدات الرسمية...

الأرض المشتركة - الفلاحون والريف ، لقد رأى إيفانز أن ثقافة الفلاحين كانت نتاجًا لوساطة العلاقة بين الإنسان والبيئة ومستودعًا للحيوية واستمرارية القيم الاجتماعية الدائمة التي تميل المناطق الحضرية إلى تدميرها . كان موضوعه الجغرافي إلى حد كبير "الناس العاديون والأرض نفسها ، الأرض التي ساعدوا في صنعه : لأن **الأرض أقدم منا جميعًا ، وأقدم بكثير من جميع الثقافات البشرية** . وبالضرورة ، كان هذا العالم ريفيًا بالكامل تقريبًا ، مليئًا بالرنين - المنقول إلى أيرلندا - لأفكار فلور حول أقصى أطراف ويلز كونها "الملجأ النهائي" للقيم والرؤى الحقيقية للويلزية . وكما كتب فلور نفسه في تكريم إيفانز: لقد تم النظر إلى أيرلندا كونها الركن الأخير من أوروبا الغربية ، وكنزًا للماضي ، والمكان الأخير الذي يمكن أن تنتشر فيه ثقافة ، والمكان الأخير الذي يمكن أن تبقى فيه ثقافة عتيقة .

إلى حد ما ، كان إيفانز ينظر إليها بهذه الطريقة أيضًا ، لأنه - كما قيل هنا - كان مركز رؤيته لأيرلندا هو الغرب بشكل عام وأقصى الشمال الغربي بشكل خاص . إنها صورة قوية ، ولكن في نقطة مهمة ، يلاحظ ويلان [في "ما وراء المظاهر الطبيعية الورقية : جيه إتش أندروز والجغرافيا التاريخية الأيرلندية" ، في إيلين وويلان ، دبلن : المدينة والريف ، 1992] أنه بحلول القرن التاسع عشر، لم يكن غرب أيرلندا مجرد منطقة نائية ، ولكن بسبب الهجرة ، كان يتطلع إلى أميركا الشمالية ويقيم معها علاقات وثيقة . ومع ذلك ، بالنسبة لإيفانز ، كانت إحدى الروابط المشتركة التي تربط جميع شعوب أيرلندا هي هذا الولاء للتقاليد والمناطق المحلية . وبسبب إيمانه بالتعايش بين المجتمع البشري وبيئته المادية ، فقد شمل تعريفه الخاص للتراث المستوطنات الريفية ، والتقاليد الشفوية ، والمعتقدات ، واللغات ، والفنون والحرف اليدوية ، والثقافة الشعبية المتجسدة في العلاقات البيئية...

الاستمرارية

يشكل مفهوم الاستمرارية ، الذي يعتمد على "الموئل والتراث" ، الدافع الثالث في أعمال إيفانز ، وعلاوة على ذلك ، ربما يكون الدافع الأكثر أهمية لفهم وجهات نظره بشأن أولستر وأيرلندا ، وهو السبب وراء تحوله إلى أحد أكثر جوانب عمله إثارة للجدل . كتب إيفانز : "لقد حاولت أن أقرأ المظاهر الطبيعية الريفية ، وتوصلت إلى أنها المفتاح لاستمرارية التاريخ الأيرلندي" . هناك شيء يشبه ، إن فكرة الاستمرارية والاستقرار التي عبر عنها شيموس هيني من بين آخرين ، هي أن الاستمرارية والاستقرار يمكن العثور عليهما في الأراضي الأيرلندية وليس في شعبها...

إن مفهوم الاستمرارية الذي يتبناه إيفانز يستحضر أكثر من مجرد بقاء القطع الأثرية والعادات على المدى الطويل عبر الزمن ، بل يمثل بدلاً من ذلك اعتقادًا بأن الخصوصيات ذاتها للثقافات تتشكل من خلال "تجديد القديم في اتصال مع الجديد" . وبالتالي ، فإن مركزية الاستمرارية في تمثيل إيفانز لأيرلندا نشأت في الجغرافيا الأخلاقية لفلور والأفكار المتعلقة بالتصور الإقليمي التي توسطها مفهوم الأراضي كونها تجسيدًا لقيم الفلاحين والسيطرة عليها . وعلى الرغم من الأدلة على التحضر والصناعة ، فقد رأى إيفانز أن أيرلندا حافظت "إلى حد كبير على العادات والعادات الاجتماعية لمرحلة ما قبل الصناعة في الحضارة الغربية". ورغم أن هذا قد يُعد ضمناً ركوداً ثقافياً ، فإن إيفانز لم ينظر إلى الجزيرة كونها مجرد مستودع للتحف الثقافية القديمة...

لقد قرأت أن العنصر الأساسي في تصور إيفانز للاستمرارية هو فكرة التعددية المتمثلة في تكيف مجموعات المهاجرين المتعاقبة مع المجتمعات القائمة مسبقاً والتي لابد وأن يكون وصولهم قد أدى إلى تغييرها أيضاً ، وهو المفهوم الذي ألقى الضوء عليه اهتمام فلور بمناطق الاتصال الثقافي . وبالتالي فإن إيفانز لم يقصد بالاستمرارية ببساطة بقاء الأراضي الحضرية وأسماء الأماكن أو العادات عبر الزمن ، بل قصد أيضاً **التجديد المستمر للقديم من خلال اتصاله بالأفكار والثقافات الجديدة** . لقد رأى أن الثقافة الأيرلندية متنوعة ، وأن السجل الأثري يثبت إثراء هذه الاستمرارية الثقافية ، فضلاً عن خصائصها الدائمة . لقد تم استيعاب النورسيين وفشل النورمان ، ومع ذلك أدى وجودهم إلى تقليد أنجلو أيرلندي دائم . لم يستخدم إيفانز كلمة الاستيعاب ، بل أشار بدلاً من ذلك إلى عملية الاستيعاب . لقد كان بالضبط الصدام بين السكان الأصليين والوافدين الجدد هو الذي أشعل شرارة الثقافة الأيرلندية وبالتالي فإن تفسير إيفانز هو النقيض التام للصورة القومية التي تصور أيرلندا الغيلية وهي تستوعب بشكل شبه سلس تعديات الغزاة المختلفين. . . . .

أولستر

كان إيفانز من سكان أولستر بالتبني ، وكانت المقاطعة التي تضم تسع مقاطعات ، والتي أصبحت المختبر لأفكاره الجغرافية ، تشكل المقاطعة الرابعة ، كان إيفانز يعد أولستر من أكثر المناطق التي تأثرت بالثقافة الأيرلندية . وكان يعترض على اغتصاب اسم المكان "أولستر" من قبل "المتحدثين البروتستانت المتطرفين" لتحديد المقاطعات الست . ولم تكن حدود أولستر التي حددها إيفانز حدود التقسيم ، بل كانت حزامًا صعبًا يمتد من الشرق إلى الغرب من مقاطعة داون إلى خليج دونيجال ، عبر كافان وموناجان وفيرماناغ . وكان اهتمامه الرئيسي ، كما أشعر، هو تحديد معنى أولستر، وعزل شخصيتها . وأنا أزعم أنه رأى ذلك كونه مظهرًا واحدًا من مظاهر الهوية الأيرلندية المنفصلة عن كيان أكبر، ولكنه جزء منه .

الأيرلندية

إن قضية الأيرلندية تشكل الموضوع الأخير في أعمال إيفانز، وهو موضوع معاصر ظاهريًا ، نظرًا للمناقشة المستمرة المشار إليها أعلاه . إن الامتداد المنطقي لمفهوم العالم الجغرافي ، الذي تحدده النطاق الصغير للبلاد ، هو فكرة مفادها أنه على الرغم من أنه قد يشكل موضوعًا واحدًا ، فإن شخصية أيرلندا محددة بتنوعاتها الإقليمية العديدة . والواقع أن معظم الدول الأوروبية تطورت من خلال مثل هذا الاندماج بين الولاءات الإقليمية . وتتميز هذه الجزيرة الصغيرة نسبيًا التي تبلغ مساحتها 70 ألف كيلومتر مربع بمناطق طورت منذ فترة طويلة توجهاتها وتجاربها الخاصة ، حتى وإن كانت الصفات الانعزالية المتماسكة للمكان تعني أن هذه التجارب كان لابد من احتواؤها ومشاركتها داخل أرض ضيقة ومنطوية في كثير من الأحيان . في مثل هذا السياق ، يمكن قراءة الكثير من أعمال إيفانز كونها رفضًا لليقينيات المتجانسة والطائفية للقومية الأيرلندية الأرثوذكسية لصالح التعددية أو التنوع. . . . .

نقد أفكار إيفانز

من الواضح أن رؤى [إيفانز] لأولستر وأيرلندا معيبة ، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى عدم كفاية فلسفته الجغرافية ومنهجيته في التعامل مع الخطاب السياسي ومتطلبات عالم متزايد التحضر والتصنيع . إن فكرة فيدال التي ركزت على القوة الإبداعية للمجموعات البشرية للتكيف مع البيئة الطبيعية وتشكيلها ضمن حدود معينة لم يعد الأمر ذا أهمية كبيرة ، حتى في أيرلندا . على الرغم من أن البلاد قد تكون واحدة من أقل

البلدان تحضرًا في أوروبا ، إلا أن 60 % من سكانها يعيشون في البلدات والمدن ، في حين تضاءل التوظيف في الزراعة بالتناسب . وفوق هذه التحفظات المختلفة ، يمكننا تحديد ثلاثة أسباب محددة يمكن من خلالها تناول وجهة نظر إيفانز بشأن أيرلندا .

أولاً، تعرضت للانتقاد بسبب أساسها المصنوع وليس الفكري أو الإنساني . وكما لاحظ جون هيويت ، فإن تأكيد إيفانز على الحياة الشعبية تم تأكيده إلى حد كبير من خلال دراسة الثقافة المادية ، وخاصة أنواع المنازل والأدوات مثل المجرفة ، على النقيض من الأشياء الروحية -المعبر عنها في القصص الشعبية والشعر والكلام . وكما لاحظنا سابقًا ، لا يعني هذا أن إيفانز لم يكن يقدر وحدة الثقافة أو السياقات الاجتماعية الثقافية للقطع الأثرية ، لأنه عد التراث الغني للفولكلور الأيرلندي مقياسًا للارتباط الوثيق بين الناس ومحيطهم المباشر . ومع ذلك ، فإن توازن أعماله المنشورة يميل إلى التركيز على العمليات الخارجية بدلاً من العمليات الداخلية . هذه جغرافية تجسد الأماكن ، وفقًا لتعليق بيكر على "الوعي الزائف" للجغرافية التاريخية ، بإشارة أكثر محدودية إلى الشعوب التي سكنتها .

يفسر هذا التركيز على القطع الأثرية جزئيًا فشل إيفانز في التعامل مع السلطة أو الطبقة أو الدين أو السياسة . إن منهجه ، وخاصة في تحيزه ضد المصادر الوثائقية ، لم يكن مجهزًا جيدًا للنظر في مثل هذه القضايا ، ولم يشر إلا في أندر المناسبات إلى التداعيات السياسية لأفكاره على جزيرة أيرلندا : ولا محالة ، فإن نتيجتها ستكون "حلًا فيدراليًا من نوع ما" . كما لم يتطرق إلى قضية التلاعب بالهوية من خلال ممارسة السلطة كوسيلة للاستيلاء على الماضي من أجل إضفاء الشرعية على الحاضر الذي يُرى فيه أن هذا الماضي يبلغ ذروته . (وفي هذا السياق ، يعد متحف أولستر الشعبي والنقل مهمًا للغاية . وفي إنشاء هذا المتحف ، عمل إيفانز عن كثب مع تيرينس أونيل ، الذي أصبح فيما بعد رئيس وزراء أيرلندا الشمالية . ويتطلب الأمر إجراء تحقيق مفصل لتحديد الأجندات التي كان الرجلان يعملان من أجلها ، لكنني أظن أن دوافعهما لم تكن متطابقة تمامًا.)

ثانيًا، يجب أن ترتبط أسئلة خطيرة بآراء إيفانز بشأن الاستمرارية . وكما حاولت أن أوضح ، فإن هذه الأسباب تنبع من توجهه المعرفي نحو الخلود . ولكن ربما كان من الأجدى أن نذكر هنا أن إيفانز كان يحاول أن يبرهن على قدم العناصر الأثرية الحاسمة في حياة الفلاحين ، بما في ذلك أشكال الاستيطان وأنظمة الحقول ، في فترة ما قبل السلت . ورغم أن هذا النقد الذي قدمه ويلان لهذا النهج [في كتابه "الاستيطان والمجتمع في أيرلندا في القرن الثامن عشر" ، في كتاب داوي وفوستر، المحرران ، مكان الشاعر: أدب ومجتمع أولستر، 1991] يتطلب قدراً أعظم من البحث والتبرير والتأهيل ، فإنه يحتوي على قدر كبير من الجدارة .

وعلى غرار جونز هيوز ["المجتمع والاستيطان في أيرلندا في القرن التاسع عشر"، الجغرافيا الأيرلندية ، المجلد الخامس، 1965] ، يزعم أن المناطق الغربية الطرفية مثل مقاطعة دونيجال لم تكن ملاذًا لبعض أشكال الحياة الشعبية الراسخة بل شهدت في الواقع استيطانًا وثيقًا ودائمًا من قبل الشعوب الزراعية فقط في القرن الثامن عشر في أعقاب مزارع أولستر وزيادة السكان . وكانت حجة إيفانز أن نوعًا أيرلنديًا معينًا من الحقول المفتوحة – روندیل - وشكل الاستيطان النووي المرتبط به -كلاشان - الذي عده من سمات هذه المناطق الغربية ، يعود تاريخه إلى العصر الحديدي . وبالتالي ، فإن الأمثلة المسجلة في الطبعة الأولى من خرائط المسح الأثري ذات الست بوصات عام 1840 كانت بقايا ثقافية في منطقة منعزلة ، مما يدل على الاستمرارية طويلة الأمد .

وعلى النقيض من ذلك ، زعم ويلان بقوة أن الأصول الحديثة والمتعددة الجينات لمجمع الاستيطان الريفي المسجل في هذه الخرائط . والواقع أن إيفانز أشار إلى تأخر الكثير من الاستيطان في منطقة جويدور في دونيجال ، وهي إحدى مناطق اللجوء التي افترضها ، ولكنه فشل في معالجة الآثار المترتبة على حجته السابقة . ولا تبطل حجة ويلان ادعاء إيفانز باستمرارية طويلة الأجل للقطع الأثرية المادية : الاستيطان الدائم على طول هامش المحيط الأطلسي البري الذي يصعب الوصول إليه في دونيجال والذي يعود تاريخه إلى أوائل العصر البرونزي . ومع ذلك ، فإنها تخدم لإثبات أن إيفانز كان مخطئًا في افتراض نظام ميداني واستيطان أيرلندي مميز واحد وفي افتراض أصل موحد لعناصر هذا المجمع .

وكما أشرت ، فإن أفكار إيفانز بشأن الاستمرارية كانت مبنية على فلسفته الجغرافية الأوسع ، والتي توسطها نفور من القومية الأيرلندية التقليدية ؛ والنقطة الأخيرة فقط هي التي تجعلها خاصة بأيرلندا كما يوضح عمله العام حول المجتمعات الفلاحية على نحو وافٍ . وعلاوة على ذلك ، كان إيفانز يؤمن بأكثر من مجرد "الحفاظ على الثقافة الشعبية عبر الزمن . وللتأكيد ، على الرغم من تناقضه الداخلي ، فإن وجهة نظره بشأن الاستمرارية تؤكد على تجديد القديم في اتصال بالجديد . وهذا يميزها عن البقاء الدائم لمجموعة من اليقينيات العرقية الثابتة ، وهو أحد المبادئ التوجيهية للقومية الأيرلندية التقليدية. ...

[كمجال أخير للنقد] نظر إيفانز إلى التجديد الثقافي بطريقة انتقائية للغاية ، وهو المنظور الذي أدى ، من خلال استبعاده للتأثيرات التي لا تتناسب مع المجمع الفلاحي أو التي لا تستجيب لمنهجيته ، إلى وجهة نظر خاصة للغاية بشأن أولستر في أيرلندا . لقد حدثت الولادة الجديدة في إطار البلدان ، لكن العديد من عناصر الماضي الأيرلندي لم تُمنح إلا القليل من الاهتمام . ولقد كان من بين هذه العوامل تأثير الأنجلو نورمان ، الذي خفت حدته في أولستر ولكنه كان مهما رغم ذلك ، والتحسينات التي أدخلها ملاك الأراضي والتي غيرت المظاهر الطبيعية الريفية والحضرية في القرنين الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر.

ولكن ربما كان الأمر الأكثر أهمية هو أنه لم يكن هناك أي مكان تقريبا في عالم إيفانز للتحولات التي طرأت على الفضاء الاجتماعي الأيرلندي والتي نجمت عن اختراق الرأسمالية الصناعية والتحضر في القرن التاسع عشر، وخاصة في شمال شرق الجزيرة . ومن عجيب المفارقات أن حتى المناطق النائية في غرب دونيجال تأثرت بهذه العملية : فقد تطور "فلاحو" جويدور إلى حد كبير إلى بروليتاريا ريفية متورطة بشكل كبير في العمالة المهاجرة ، وخاصة في غلاسكو ، مما أدى إلى إرساء ارتباط ثقافي ما يزال قائما حتى اليوم . وقد يستنتج المرء أن إيفانز خلق صورة تمثيلية لأولستر وأيرلندا لم يكن بوسع الطبقات العاملة أن ترتبط بها ـ إلا بقدر ما كان أسلافها ينحدرون من الغرب ـ وكانت الدولة الأيرلندية في عهد دي فاليرا مستعدة لتأييد تلك الصورة المعينة في تمثيلاتها الثقافية . وكانت رؤيته الانتقائية للاستمرارية ، المستمدة من الاعتقاد بأولوية الثقافة الفلاحية ، تعني أن شخصية أولستر لم يكن من الممكن أن تتطور بشكل كامل .

الخلاصات : جغرافية إيفانز

كمورد لأيرلندا المعاصرة وبالتالي ، أنتجت فلسفة إيفانز الجغرافية اهتماماً أقل جاذبية ببعض عناصر تنوع المظاهر الطبيعية التي رسمها . ورغم أن أعماله اللاحقة على وجه الخصوص كانت تتسم بطابع خاص ، إلا أن أعماله كانت تتسم بطابع أكثر تنوعاً. إنني لا أستطيع أن أقول شيئًا عن التنوع الذي ساد المشهد الأيرلندي بعد عصر المزارع ، ولكن هذا الموضوع لا يشكل محورًا لحججه ولا يعالج بطريقة مقنعة بشكل خاص . وعلى الرغم من هذا التحفظ الجاد ، أعتقد أنه يمكن القول إن عمل إيفانز يحتفظ بأهمية كبيرة لأيرلندا المعاصرة من خلال جوانب معينة من رؤية الهوية التي يقدمها .

وفي سياق الأسس المتنازع عليها للفهم الاجتماعي في الجزيرة ، فإن هذا النص يتناول تنوع أيرلندا وتعددها ـ السمات المغمورة ـ في كتلة الأسطورة الغيلية ـ مع الاعتراف بها كمصدر للخلاف ، فقد اعتقد إيفانز أن تلك الخصائص التي تميز جزيرتنا ـ هي التي كان علينا أن نتعلم كيف نعيش معها ونستغلها . إن أي وحدة جوهرية تنشأ من هذا التنوع وليس من خلال افتراضات التجانس الزائف : فبالنسبة لإيفانز ، كانت حركة سين فينية تجسيدًا للهوية الأيرلندية . لذلك ، يجب التمييز بين أفكار إيفانز بعناية وأجندات أولئك الذين يسعون إلى إظهار انفصال أولستر عن بقية أيرلندا. . . .

إن بحث إيفانز عن أرضية مشتركة - أجندته الشخصية - والتي لا يمكن أن تنشأ إلا من خلال إهمال التحضر إلى حد كبير وتجاهل الدين والسياسة والصراع الاجتماعي بالكامل تقريبًا ، ما يزال معنا من خلال تجسيده كمتحف أولستر الشعبي والنقل . ويبقى أن نحدد إلى أي مدى ساهمت هذه المؤسسة في تشكيل التصورات التي يحملها شعب أولستر لتراثهم . إذا اختاروا أن يعتقدوا أن العالم المعاصر هو انحراف عن مجتمع الماضي ، فبغض النظر عن مدى عدم واقعية صور إيفانز عن أيرلندا الآن ، فإنهم سيضطرون إلى التخلي عن هذا الاعتقاد . إن هذه الأعمال ما تزال ذات أهمية مستمرة كمورد للمجتمع المعاصر والجهود المبذولة لإحداث شكل من أشكال المصالحة بين عناصره المتضاربة . وفي قائمة هائلة من السلبيات ، خلص تقرير أوبسال عن أيرلندا الشمالية ، وهو أحدث تحقيق (غير رسمي) في الأسئلة المحيرة والغامضة المحيطة بالأسس المتنازع عليها للتفاهم الاجتماعي في أيرلندا الشمالية ، إلى أنه لا توجد احتمالات واقعية لأي شكل من أشكال الوحدة الأيرلندية في المستقبل المنظور .

ومن بين الصعوبات الرئيسية التي تم تحديدها فقدان الشعور بالأيرلندية بين البروتستانت ، الذين يعتقدون أن التاريخ والثقافة واللغة الأيرلندية قد تم الاستيلاء عليها من قبل القوميين كأسلحة سياسية . وعلى الرغم من كل المؤهلات التي تم التعبير عنها هنا ، فإن عمل إيفانز في حياته تناول هذه المعضلة بالذات ، وهذا هو السبب في أن جغرافيته ما تزال مهمة . وكما يزعم توان ، فإن الجغرافيين قادرون على "خلق المكان ببلاغتهم" ، وقليلون هم الذين كتبوا بأسلوب شعري ، أو بمثل هذا الارتباط العاطفي بالمكان ، كما فعل إيفانز عن أولستر وبلادها . وبذلك ، نفى إيفانز حصرية أيرلندا الأيرلندية.

وبالتالي، يمكن تخصيص جغرافيته لدعم الفكرة المعاصرة التي تقول إن تفسير تعقيدات الهوية الثقافية الأيرلندية يمكن العثور عليه في "تعددية الاستمرارية ، المتشابكة ، المليئة بالتعقيد" [جي. أوتواثايغ، "فكرة أيرلندا الأيرلندية: الأساس المنطقي والأهمية"، في لونجلي، المحرر، الثقافة في أيرلندا: الانقسام أو التنوع، 1991]. إن التراث الذي تحدده هذه الفكرة ـ بمعنى المعاني المرتبطة بالأشياء غير الحية ـ يحث جميع أهل أولستر على قبول هويتهم الأيرلندية . إن أيرلندا التي تناولها إيفانز تشمل بلانتر وغايل ، حيث يدافع عمله عن مركزية الهجرة والاستعمار بمعنى أن الهوية الأيرلندية وهوية أولستر قد تشكلت من خلال التجديد المستمر للقديم في اتصال مع الجديد. . . . .